لو استحضرت جريمته لوجدته يُقتَلُ عدالة وقصاصاً فقد قُتِل غيره ظلماً ، فلا تبعد هذه عن هذه .

« هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو » ومعنى « لا إله إلا هو » أى سيصوِّر وهو عالم أن ما يصوِّره سيكون على هذه الصورة ؛ لأنه لا يوجد إله آخر يقول له : هذه لا تعجبنى وسأصور صورة أخرى ، لا ؛ لأن الذى يفعل ذلك عزيز ، أى لا يُغلب على أمر ، وكل ما يريده يحدث وكل أمر عنده لحكمة ، لأنه عندما يقول : « يصوركم فى الأرحام » قد يقول أحدٌ من الناس : إن هناك صورًا شاذة وصورًا غير طبيعية . وهو سبحانه يقول لك : أنا حكيم ، وأفعلها لحكمة فلا تفصل الحدث عن حكمته ، خُذ الحدث بحكمته ، وإذا أردت الحدث بحكمته تجده الجمال عينه ، وهو سبحانه المصوِّر فى الرحم كيف يشاء ، هذا من ناحية مادته .

وهو سبحانه يوضح : فلن يترك المادة هكذا بل سيجعل لهذه المادة قيما كى تنسجم حركة الوجود مع بعضها يقول سبحانه :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾

إذن فبعدما صورنا فى الأرحام كيف يشاء على مُقتضى حكمته لن يترك الصور بدون منهج للقيم ، بل صنع منهج القيم بأن أنزل القرآن وفيه منهج القيم ، ولا بد أن نأخذ الشيء بجوار الحكمة منه ، وإذا أخذنا الشيء بجوار الحكمة منه يوجد كل أمر مستقيما كله جميل وكله خير . فيقول سبحانه : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات » .

ماذا يعنى الحق بقوله : « آيات محكمات » ؟ إن الشيء المحكم هو الذى لا يتسرب إليه خلل ولا فساد فى الفهم ؛ لأنه محكم ، وهذه الأيات المحكمة هى النصوص التى لا يختلف فيها الناس ، فعندما يقول :

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا ﴾

(من الآية ٣٨ سورة المائدة)

هذه آية تتضمن حُكما واضحا . وهو سبحانه يقول :

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ﴾

(من الآية ٢ سورة النور)

هذه أيضا أمور واضحة ، هذا هو المُحكم من الايات . فالمُحكم هو ما لا تختلف فيه الأفهام ؛ لأن النص فيه واضح وصريح لا يحتمل سواه . و« المُتشابه » هو الذى نتعب فى فهم المراد منه ، ومادمنا سنتعب فى فهم المراد منه فلماذا أنزله ؟

ويوضح لنا سبحانه - كما قلت لك - خذ الشيء مع حكمته كى تعرف لماذا نزل ؟ فالمُحْكم جاء للأحكام المطلوبة من الخلق ، أى افعل كذا ، ولا تفعل كذا ، ومادامت **أفعالا مطلوبة** من الخلق فالذى فعلها يُثاب عليها ، والذى لم يفعلها يُعاقب ، إذن فسيترتب عليها ثواب وعقاب ، فيأتى بها فى صورة واضحة ، وإلا لقال واحد : « أنا لم أفهم » ، إن الأحكام تقول لك : « افعل كذا ولا تفعل كذا » فهى حين تقول : « افعل » ؛ أنت صالح ألا تفعل ، فلو كنت مخلوقا على أنك تفعل فقط ؛ لا يقول لك:افعل ، لكن لأنك صالح أن تفعل وألا تفعل فهو يقول لك : « افعل » .

وساعة يقول لك : « لا تفعل » ، فأنت صالح أن تفعل ، فلا يقال : « افعل ولا تفعل » إلاّ لأنه خلق فيك صلاحية أن تفعل أو لا تفعل ، ونلحظ أنه حين يقول لى : افعل كذا ولا تفعل كذا يريد أن أقف أمام شهوة نفسى فى الفعل والترك ، ولذلك يقول الحق فى الصلاة :

﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة البقرة)

فعندما يقول لى: « افعل ولا تفعل » معناها : أن فيه أشياء تكون ثقيلة أن أفعلها ، وأنّ شيئا ثقيلا على أن أتركه ، فمثلا البصر خلقه الله صالحا لأن يرى كل ما فى حيّزه . على حسب قانون الضوء ، والحق يقول له :

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٠١ سورة يونس)

ولكن عند المرأة التى لا يحل لك النظر إليها يقول الحق : اغضض .

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾

(سورة النور)

ومعنى « يغضوا » و« يغضضن » أنه سبحانه حدد حركة العين ، ومثال آخر : اليد تتحرك فيأمرك ـ سبحانه ـ ألاّ تحركها إلا فى مأمور به ، فلا تضرب بها أحدًا ، ولا تشعل بها ناراً تحرق وتفسد بل أشعل بها النار لتطبخ مثلاً .

إذن فهو سبحانه يأتى فى « افعل ولا تفعل » ويحدد شهوات النفس فى الفعل أو الترك ، فإن كانت شهوة النفس بأنها تنام ، يقول الأمر التعبدى : قم وصل ، وإن كانت شهوة النفس بأنها تغضب يقول الأمر الإيمانى : لا تغضب .

إذن فالحكم إنما جاء بافعل ولا تفعل لتحديد حركة الإنسان ، فقد يريد أن يفعل فعلاً ضارًا ؛ فيقول له : لا تفعل ، وقد يريد ألاّ يفعل فعلَ خيرٍ يقول له : افعل . إذن فكل حركات الإنسان محكومة بـ « افعل ولا تفعل » ، وعقلك وسيلة من وسائل الإدراك ، مثل العين والأذن واللسان . إن مهمة العقل أن يدرك ، فتكليفه يدعوه إلى أن يفهم أمرًا ولا يفهم أمرا آخر ، وجعل الله الآيات المحكمات ليريح العقل من مهمة البحث عن حكمة الأمر المحكم ؛ لأنها قد تعلو الإدراك البشرى . ويريد الحق أن يلزم العبد آداب الطاعة حتى في الشيء الذى لا تُدرك حكمة تشريعه ، وأيضا لتحرك عقلك لترد كل المتشابه إلى المحكم من الآيات . وإذا قرأنا قول الحق :

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

نرى أن ذلك كلام عام . وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة القيامة)

ويتكلم عن الكفار فيقول :

﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة المطففين)

إذن فالعقل ينشغل بقوله : « لا تدركه الأبصار » ، وهذا يحدث في الدنيا ، أما في الآخرة فسيكون الإنسان قد تم إعداده إعداداً آخر ليرى الله ، نحن الآن في هذه الدنيا بالطريقة التى أعدنا بها الله لنحيا في هذا العالم لا نستطيع أن نرى الله ، ومسألة إعداد شيء ليمارس مهمة ليس مؤهلا ولا مهيأ لها الآن ، أمر موجود في دنيانا ، فنحن نعرف أن إنسانا أعمى يتم إجراء جراحة له أو يتم صناعة نظارة طبية له فيرى . ومن لا يسمع أو ثقيل السمع نصنع له سماعة فيسمع بها .

فإذا كان البشر قد استطاعوا أن يُعِدُّوا بمقدوراتهم في الكون المادى أشياء لتؤهلهم إلى استعادة حاسة ما ، فما بالنا بالخالق الأكرم الإله المربِّى ، ألا يستطيع أن يعيد خلقنا في الآخرة بطريقة تتيح لنا أن نرى ذاته ووجهه ؟! إنه القادر على كل شيء .

إذن فالأمر هنا متشابه ، إن الله يُدرَك ـ بضم الياء وفتح الراء ـ أو لا يُدْرَك ، فما الذى تغير من الأحكام بالنسبة لك ؟ لا شيء . إذن فهذه الآيات المتشابهات لم تأت من أجل الأحكام ، إنما هى قد جاءت من أجل الإيمان فقط ، ولذلك فالرسول صلى الله عليه وسلم ينهى كل خلاف للعلماء حول هذه المسألة بقوله وهو الرسول الخاتم : « إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا فما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه منه فآمنوا به »[1] .

إن المُتشابه من الآيات قد جاء للإيمان به ، والمُحْكَم من الآيات إنما جاء للعمل به ، والمؤمن عليه دائما أن يرد المُتشابه إلى المُحْكَم . مثال ذلك عندما نسمع قول الله عز وجل :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الفتح)

إن الإنسان قد يتساءل : « هل لله يد » ؟ على الإنسان أن يرد ذلك إلى نطاق « ليس كمثله شيء » . وعندما يسمع المؤمن قول الحق :

﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة طه)

فهل لله جسم يستقر به على عرش ؟ هنا نقول : هذا هو المُتشابه الذى يجب على المؤمن الإيمان به ، ذلك أن وجودك أيها الإنسان ليس كوجود الله ، ويدك ليست كيد الله وأن استواءك أيضا ليس كاستواء الله . ومادام وجوده سبحانه ليس كوجودك وحياته ليست كحياتك فلماذا تريد أن تكون يده كيدك ؟

هو كما قال عن نفسه : « ليس كمثله شيء » . ولماذا أدخلنا الله إلى تلك المجالات ؟ لأن الله يريد أن يُلفت خلقه إلى أشياء قد لا تستقيم فى العقول ؛ فمن

(١) رواه الإمام ابن كثير فى تفسيره ، ورواه ابن مردويه .

يتسع ظنه إلى أن يؤول ويردها إلى المُحْكم بأن الله ليس كمثله شيء . فله ذلك ، ومن يتسع ظنه ويقول : أنا آمنت بأن لله يداً ولكن فى إطار « ليس كمثله شيء » فله ذلك أيضا وهذا أسلم .

والحق يقول : « منه آيات محكمات هن أم الكتاب » ومعنى « أُمّ » أى الأصل الذى يجب أن ينتهى إليه تأويل المُتشابه إن أوّلت فيه ، أو تُرجعه إلى المُحكم فتقول : إن لله يداً ، ولكن ليست كأيدى البشر . إنما تدخل فى نطاق :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾

(من الآية ١١ سورة الشورى) .

ولماذا قال الحق : « هن أم الكتاب » ؟ ولم يقل : هن أمهات الكتاب ؟ لك أن تعرف أيها المؤمن أنه ليس كل واحدة منهن أمّا ، ولكن مجموعها هو الأم ، ولتوضيح ذلك فلنسمع قول الحق :

﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠ ﴾

(سورة المؤمنون)

لم يقل الحق : إنهما آيتان ؛ لأن عيسى عليه السلام لم يوجد كآية إلا بميلاده من أمه دون أب أى بضميمة أمه ، وأم عيسى لم تكن آية إلا بميلاد عيسى أى بضميمة عيسى . إذن فهما معاً يكونان الآية ، وكذلك « هن أم الكتاب وأخر متشابهات » فالمقصود بها ليس كل محكم أمّا للكتاب ، إنما المحكمات كلها هى الأم ، والأصل الذى يَرُدُّ إليه المؤمنُ أىَّ متشابهٍ . ومهمة المحكم أن نعمل به ، ومهمة المتشابه أن نؤمن به ؛ بدليل أنك إن تصورته على أى وجه لا يؤثر فى عملك . فقوله الحق : « لا تدركه الأبصار » لا يترتب عليه أى حكم ، وهنا يكفى الإيمان فقط .

لكن ماذا من أمر الذين قال عنهم الله : « فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله » ؟ . ولنا أن نعرف أن « الزيغ » هو المَيْل ، فزاغ يعنى مال ، وهى مأخوذة من تزايغ الأسنان ، أى اختلاف منابتها ، فسِنّة تظهر داخلة ، وأخرى خارجة ، وعندما لا تستقيم الأسنان فى طريقة نموها يصنعون لها

الآن عمليات تجميل وتقويم ليجعلوها صفاً واحداً .

إن الذين فى قلوبهم زيغ أى ميل ، يتبعون ما تشابه من الآيات ابتغاء الفتنة . كأن الزيغ أمر طارىء على القلوب ، وليس الأصل أن يكون فى القلوب زيغ ، فالفطرة السليمة لا زيغ فيها ، لكن الأهواء هى التى تجعل القلوب تزيغ ، ويكون الإنسان عارفاً لحكم الله الصحيح فى أمر ما ، لكن هوى الإنسان يغلب فيميل الإنسان عن حكم الله . والميل صنعة القلب ، فالإنسان قد يخضع منطقه وفكره ليخدم ميل قلبه ، ولذلك فرسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)[1]

لماذا ؟ لأن آفة الرأى الهوى ، وحتى المنحرفون يعرفون القصد السليم ، لكن الواحد منهم ينحرف لما يهوى ، ودليل معرفة المنحرف للقصد السليم أنه بعد أن يأخذ شرّته فى الانحراف يتوب ويعلن توبته ، وهذا أمر معروف فى كثير من الأحيان ؛ لأن الميل تَكَلُّفٌ تبريرى . أما القصد السليم فأمر فطرى لا يُرهق ، ومثال ذلك : عندما ينظر الإنسان إلى حلاله ، فإنه لا يجد انفعال مَلَكة يناقض انفعال ملكة أخرى ، ولكن عندما ينظر إلى واحدة ليست زوجته ، فإن ملكاته تتعارك ، ويتساءل : هل ستقبل منه النظرة أو لا ؟ إن ملكاته تتضارب ، أما النظر إلى الحلال فالملكات لا تتعب فيه . لذلك فالإيمان هو اطمئنان ملكات ، فكل ملكات الإنسان تتآزر فى تكامل ، فلا تسرق ملكة من وراء أخرى .

مثال آخر : عندما يذهب واحد لإحضار شىء من منزله ، فإنه لا يحس بتضارب ملكاته ، أما إذا ذهب إنسان آخر لسرقة هذا الشىء فإن ملكاته تتضارب ، وكذلك جوارحه ؛ لأنها خالفت منطق الحق والاستقامة والواقع .

« فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله » إذن فاتباعهم للمتشابه منه ليؤوّلوه تأويلاً يخالف الواقع ليخدموا الزيغ الذى فى قلوبهم .

---

(١) رواه فى شرح السنة للبغوى ، وفى كنز العمال ، ومشكاة المصابيح للتبريزى .

فالميل موجود عند قلوبهم أولاً ، ثم بدأ الفكر يخضع للميل ، والعبارة تخضع للفكر ، وهكذا نرى أن الأصل فى الميل قد جاء منهم .. ولننظر إلى أداء القرآن الكريم حين يقول :

﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾

(من الآية ٥ سورة الصف)

كأنه يقول : مادمتم تريدون الميل فسأميلكم أكثر وأساعدكم فيه . والحق سبحانه لا يبدأ إنساناً بأمر يناقض تكليفه ، لكن الإنسان قد يميله هواه إلى الزيغ ، فيتخلى الله عنه : ويدفعه إلى هاوية الزيغ . وآية أخرى يقول فيها الحق :

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

(سورة التوبة)

إنهم الذين بدأوا ؛ انصرفوا عن الله فصرف الله قلوبهم بعيداً عن الإيمان . وكذلك الذين يتبعون المتشابه يبتغون به الفتنة أى يطلبون الفتنة ، ويريدون بذلك فتنة عقول الذين لا يفهمون ، وماداموا يريدون فتنة عقول من لا يفهمون فهم ضد المنهج ، وماداموا ضد المنهج فهم ليسوا مؤمنين إذن ، وماداموا غير مؤمنين فلن يهديهم الله إلى الخير ، لأن الإيمان يطلب من الإنسان أن يتجه فقط إلى الإيمان بالرب الإله الحكيم ، ثم تأتى المعونة بعد ذلك من الله . لكن عندما لا يكون مؤمنا فكيف يطلب المعونة من الله ، إنه سبحانه يقول :

(أنا أغنى الشركاء عن الشرك)[1] .

إنهم يبتغون الفتنة بالمتشابه ، ويبتغون تأويله ، ومعنى التأويل هو الرجوع ، لأننا نقول : « آل الشىء إلى كذا » أى رجع الشىء إلى كذا ، فكأن شيئاً يرجع إلى شىء ، فمن لهم عقل لا زيغ فيه يحاولون جاهدين أن يؤولوا المُتشابه ويردوه إلى المُحكم ، أو يؤمنوا به كما هو .

---

(١) اتحاف السادة المتقين للزبيدى ، ومسند الربيع بن حبيب ، والترغيب والترهيب للمنذرى ، والأسماء والصفات للبيهقى .

ويقول الحق بعد ذلك : « وما يعلم تأويله إلا الله » إن الله لو أراد للمتشابه أن يكون مُحْكَماً ، لجاء به من المُحكَم ، إذن فإرادة الله أن تكون هناك آيات المتشابه ومهمتها أن تحرك العقول ، وذلك حتى لا تأتى الأمور بمنتهى الرتابة التى .يجمد بها عقل الإنسان عن التفكير والإبداع ، والله يريد للعقل أن يتحرك وأن يفكر ويستنبط . وعندما يتحرك العقل فى الاستنباط تتكون عند الإنسان الرياضة على الابتكار ، والرياضة على البحث ، وليجرب كل واحد منا أن يستنبط المتشابه إلى المحكم ولسوف يمتلك بالرياضة ناصية الابتكار والبحث ، والحاجة هى التى تفتق الحيلة .

إن الحق يريد أن يعطى الإنسان دربة حتى لا يأخذ المسائل برتابة بليدة ويتناولها تناول الخامل ويأخذها من الطريق الأسهل ، بل عليه أن يستقبلها باستقبال واع ويفكر وتدبر .

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة محمد)

كل ذلك حتى يأخذ العقل القدر الكافى من النشاط ليستقبل العقل العقائد بما يريده الله ، ويستقبل الأحكام بما يريده الله ، فيريد منك فى العقائد أن تؤمن ، وفى الأحكام أن تفعل « وما يعلم تأويله إلا الله » . والذين فى قلوبهم زيغ يحاولون التأويل وتحكمهم أهواؤهم ، فلا يصلون إلى الحقيقة . والتأويل الحقيقى لا يعلمه إلا الله .

قد رأينا من يريد أن يعيب على واحد بعض تصرفاته فقال له : يا أخى أتَدَّعى أنك أحطت بكل علم الله ؟ فقال له : لا . قال له : أنا من الذى لا تعلم . وكأنه يرجوه أن ينصرف عنه .

والعلماء لهم وقفات عند قوله الحق : « وما يعلم تأويله إلا الله » : بعضهم يقف عندها ويعتبر ما جاء من بعد ذلك وهو قوله الحق : « والراسخون فى العلم » كلاماً مستأنفاً ، إنهم يقولون : إن الله وحده هو الذى يعلم تأويل المتشابه ، والمعنى : « والراسخون فى العلم » أى الثابتون فى العلم ، الذين لا تغويهم الأهواء ، إنهم :

« يقولون آمنا به كل من عند ربنا » وهو ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم ، إن الراسخين فى العلم يقولون : إن المحكم من الآيات سيعملون به ، والمتشابه يؤمنون به ، وكل من المتشابه والمحكم من عند الله .

أمّا مَن عطف وقرأ القول الحكيم ووقف عند قوله : « والراسخون فى العلم » نقول له : إن الراسخين فى العلم علموا تأويل المتشابه ، وكان نتيجة علمهم قولهم : « آمنا به » .

إن الأمرين متساويان ، سواء وقفت عند حد علم الله للتأويل أو لم تقف . فالمعنى ينتهى إلى شىء واحد . وحيثية الحكم الإيمانى للراسخين فى العلم هى قوله الحق على لسانهم : « آمنا به كل من عند ربنا » فالمحكم من عند ربنا ، والمتشابه من عند ربنا ، وله حكمة فى ذلك ؛ لأنه ساعة أن يأمر الأعلى الأدنى بأمر ويبين له علته فيفهم الأدنى ويعمل ، وبعد ذلك يلقى الأعلى أمراً آخر ولا يبين علته ، فواحد ينفذ الأمر وإن لم يعرف العلة ، وواحد آخر يقول : لا ، عليك أن توضح لى العلة . فهل الذى آمن آمن بالأمر أو بالعلة ؟

إن الحق يريد أن نؤمن به وهو الآمر ، ولو أن كل شىء صار مفهوماً لما صارت هناك قيمة للإيمان . إنما عظمة الإيمان فى تنفيذ بعض الأحكام وحكمتُها غائبة عنك ؛ لأنك إن قمت بكل شىء وأنت تفهم حكمته فأنت مؤمن بالحكمة ، ولست مؤمناً بمن أصدر الأمر .

وعندما نأتى إلى لحم الخنزير الذى حرمه الله من أربعة عشر قرناً ، ويظهر فى العصر الحديث أن فى أكل لحم الخنزير مضار ، ويمتنع الناس عن أكله لأن فيه مضار ، فهل امتناع هؤلاء أمر يثابون عليه ؟ طبعاً لا ، لكن الثواب يكون لمن امتنع عن أكل لحم الخنزير لأن الله قد حرمه ؛ ولأن الأمر قد صدر من الله ، حتى دون أن يُعَرِّفنا الحكمة ، إن المؤمن بالله يقول : إن الله قد خلقنى ولا يمكن ـ وهو الخالق ـ أن يخدعنى وأنا العبد الخاضع لمشيئته .

إن العبد الممتنع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر امتثالاً لأمر الله ، هو الذى

ينال الثواب ، أما الذى يمتنع خوفاً من اهتراء الكبد أو الإصابة بالمرض فلا ثواب له . وهناك فرق بين الذهاب إلى الحكم بالعلة . وبين الذهاب إلى الحكم بالطاعة للآمر بالحكم .

إذن فالمتشابه من الآيات نزل للإيمان به ، والراسخون فى العلم يقابلهم من تلويهم الأهواء ، والأهواء تلوى إلى مرادات النفس وإلى ابتغاءات غير الحق . ومادامت ابتغاءات غير الحق ، فغير الحق هو الباطل ، فكل واحد من أهل الباطل يحاول أن يأتى بشيء يتفق مع هواه . ولذلك جاء التشريع من الله ليعصم الناس من الأهواء ؛ لأن هوى إنسانٍ ما قد يناقض هوى إنسان آخر ، والباقون من الناس قد يكون لهم هوى يناقض بقية الأهواء . والحق سبحانه يقول :

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

إذن فلا بد أن نتبع فى حركتنا ما لا هوى له إلا الحق ، والدين إنما جاء ليعصمنا من الأهواء ؛ فالأهواء هى التى تميلنا ، والذى يدل على أن الأهواء هى التى تميل إلى غير الحق أن صاحب الهوى يهوى حكماً فى شيء ، ثم تأتى ظروف أخرى تجعله يهوى حكماً مقابلا ، إنه يلوى المسألة على حسب هواه ، وإلا فما الذى ألجأ دنيا الناس إلى أن يخرجوا من قانون السماء الأول الذى حكم الأرض عند آدم عليه السلام ؟

لقد خرجوا من قانون السماء حينما قام قوم بأمر الدين فأخذوا لهم من هذا سلطة زمنية ، وأصبحوا يخضعون المسائل إلى أهوائهم . ونحن إذا نظرنا إلى تاريخ القانون فى العالم لوجدنا أن أصل الحكم فى القضايا إنما هو لرجال الدين والكهنة والقائمين على أمر المعابد . كان الحكم كله لهم ، لأن هؤلاء كانوا هم المتكلمين بمنهج الله .

ولماذا لم يستمر هذا الأمر ، وجاءت القوانين الرومانية والإنجليزية والفرنسية وغيرها ؟ لأنهم جربوا على القائمين بأمر الدين أنهم خرجوا عن نطاق التوجيه السماوى إلى خدمة أهوائهم ، فلاحظ الناس أن هؤلاء الكهنة يحكمون فى قضية

بحكم ما يختلف عن حكم آخر فى قضية مشابهة . إنهم القضاة أنفسهم والقضايا متشابهة متماثلة ، لكن حكم الهوى يختلف من قضية إلى أخرى ، بل وقد يتناقض مع الحكم الأول ، فقال الناس عن هؤلاء الكهنة :

لقد خرجوا عن منطق الدين واتبعوا أهواءهم ، ليثبتوا لهم سلطة زمنية ، فنحن لم نعد نأمنهم على ذلك . وخرج التقنين والحكم من يد الكهنة ورجال الدين إلى غيرهم من رجال التقنين . لقد كان أمر القضاء بين الكهنة ورجال الدين ؛ لأن الناس افترضت فيهم أنهم يأخذون الأحكام من منهج الله ، فلما تبين للناس أن الكهنة ورجال الدين لا يأخذون الحكم من منهج الله ، ولكن من الهوى البشرى ، عند ذلك أخذ الناس زمام التقنين لأنفسهم بما يضمن لهم عدالة ما حتى ولو كانت قاصرة .

وبمناسبة كلمة الهوى نجد أن هناك ثلاثة ألفاظ :

أولا : الهواء وهو ما بين السماء والأرض ، ويراد به الريح ويحرك الأشياء ويميلها وجمعه :الأهوية وهذا أمر حسىّ .

ثانيا : الهوَى : وهو ميل النفس ، وجمعه :الأهواء ، وهو مأخوذ من هَوِىَ يَهْوَى بمعنى مال .

ثالثا : الهُوِىّ : بفتح الهاء وضمها وتشديد الياء وهو السقوط مأخوذ من هَوَى يهْوِى : بمعنى سقط . وهذا يدل على أن الذى يتبع هواه لا بد أن يسقط ، والاشتقاقات اللغوية تعطى هذه المعانى . إنها متلاقية . إذن الراسخون فى العلم يقفون ثابتين عند منهج الله . وأما الذين يتبعون أهواءهم فهم يميلون على حسب ميل الريح . فإن الريح مالت ، مالوا حيث تميل .

ويقول الراسخون فى العلم فى نهاية علمهم : آمنا « والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا » . وهنا تلتقى المسألة ، فنحن نعرف أن المحكم نزل للعمل به ، والمتشابه نزل للإيمان به لحكمة يريدها الله سبحانه وتعالى ، وهى أن نأخذ الأمر من الأمر لا لحكمة الأمر . وعندما نأخذ الأوامر من الحق فلا نسأل عن علتها ؛ لأننا نأخذها من خالق محب حكيم عادل . والإنسان إن لم ينفذ الأمر القادم من الله إلا إذا علم علته وحكمته فإننا نقول لهذا الإنسان : أنت لا تؤمن بالله ولكنك تؤمن بالعلة

والحكمة ، والمؤمن الحق هو من يؤمن بالأمر وإن لم يفهم .

والراسخون فى العلم يقولون : آمنا به ، كل من عند الله ، المحكم من عند ربنا والمتشابه من عند ربنا .

ويضيف سبحانه : « ومايذكّر إلا أولو الألباب » و« أولو الألباب » أى أصحاب العقول المحفوظة من الهوى ، لأن آفة الرأى الهوى ، والهوى يتمايل به . « وما يذكّر إلا أولو الألباب » و« اللب » هو : العقل ، يخبرنا الله أن العقل يحكم لُبّ الأشياء لا ظواهر الأشياء وعوارضها ، فهناك أحكام تأتى للأمر الظاهر ، وأحكام للُبّ . الحق يأمر بقطع يد السارق . وبعد ذلك يأتى من يمثل دور حامى الإنسانية والرحمة ويقول : « هذه وحشية وقسوة » !

هذا ظاهر الفهم ، إنما لُبّ الفهم أنى أردت أن تُقطع يد السارق حتى أمنعه أن يسرق ؛ لأن كل واحد يخاف على ذاته ، فيمنعه ذلك أن يسرق . وقد قلنا من قبل : إن حادثة سيارة قد ينتج عنها مشوهون قدر مَنْ قطعت أيديهم بسبب السرقة فى تاريخ الإسلام كله ، فلا تفتعل وتدعى أنك رحيم ولا تنظر إلى العقاب حين ينزل بالمذنب ، ولكن انظر إلى الجريمة حين تقع منه،فإن الله يريد أن يحمى حركة الحياة للناس بحيث إذا عملت وكددت واجتهدت وعرقت يضمن الله لك حصيلة هذا العمل ، فلا يأتى متسلط يتسلط عليك ليأخذ دمه من عرقك أنت .

إذن فهو يحمى حركة الحياة ويحرك كل واحد وهو آمن . هذا « لُبّ » الفهم ، ولذلك يقول تعالى : « ولكم فى القصاص حياة » ، إياكم أن تقولوا : إن هذا القصاص اعتداء على حياة فرد . لا ، لأن « لكم فى القصاص حياة » إنّ من علم أنه إن قَتل فسيقتل ، سيمتنع عن القتل ، إذن فقد حمينا نفسه وحمينا الناس منه ، وهكذا يكون فى القصاص حياة ، وذلك هو لُبّ الفهم فى الأشياء ؛ فالله سبحانه وتعالى يلفتنا وينبهنا ألاّ نأخذ الأمور بظواهرها ، بل نأخذها بلبها ، وندع القشور التى يحتكم إليها أناس يريدون أن ينفلتوا من حكم الله . و « الراسخون فى العلم » حينما فصلوا فى أمر المتشابه دعوا الله بالقول الذى أنزله ـ سبحانه ـ :

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾

فكأن قول الراسخين فى العلم : إن كل محكم وكل متشابه هو من عند الله ، والمحكم نعمل به ، والمتشابه نؤمن به ، فهذه هى الهداية ؛ ثم يكون الدعاء بالثبات على هذه الهداية ، والمعنى : يارب ثبتنا على عبادتك ولا تجعل قلوبنا تميل أو تزيغ . وهذا يدلنا على أن القلوب تتحول وتتغير ؛ لذلك يأتى القول الفصل بالدعاء على الثبات الإيمانى :

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إنهم يطلبون رحمة هبة لا رحمة حق ، فليس هناك مخلوق له حق على الله إلا ما وهبه الله له . والراسخون فى العلم يطلبون من الله الرحمة من الوقوع فى الهوى بعد أن هداهم الله إلى هذا الحكم السليم بأن المتشابه والمحكم كل من عند الله . ويعلموننا كيف يكون الطريق إلى الهداية وطلب رحمة الهبة . والراسخ فى العلم مادام قد علم شيئا فهو يريد أن يشيعه فى الناس ، لذلك يقول لنا :

إياكم أن تظنوا أن المسألة مسألة فهم لنص وتنتهى ، إن المسألة يترتب عليها أمر آخر ، هذا الأمر الآخر لا يوجد فى الدنيا فقط ، فهناك آخرة ، فالدنيا مقدور عليها لأنها محدودة الأمد ومنتهية ، ولكن هناك الآخرة التى تأتى بعد الدنيا حيث الخلود ، فيقول الحق على لسان الراسخين فى العلم :

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ

﴿ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝ ٩ ﴾

وقولهم: « ربنا » نفهم منه أنه الحق المتولى التربية ، ومعنى التربية هو إيصال من تتم تربيته إلى الكمال المطلوب له ، فهناك ربٌّ يربى ، وهناك عبد تتم تربيته ، والربُّ يعطى الإنسان ما يؤهله إلى الكمال المطلوب له .

والمؤمنون يرجون الله قائلين : يارب من تمام تربيتك لنا أن تحمينا من عذاب الآخرة ، فإذا ما عشنا الدنيا وانتهت فنحن نعلم أنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ، ومادمت ربا ، ومادمت إلها فإنك لا تخلف الميعاد ؛ فالذى يخلف الميعاد لا يكون إلها ؛ لأن الإله ساعة الوعد يعلم بتمام قدرته وكمال علمه أنه قادر على الإنفاذ ، إنما الذى ليس لديه قدرة على الإنفاذ لا يستطيع أن يعد إلا مشمولا بشيء يستند إليه ، كقولنا نحن العباد : « إن شاء الله » لماذا ؟ لأن الواحد منا لا يملك أن يفى بما وعد .

حينما تعرضنا إلى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ۝ ﴾

(سورة الكهف)

قُلنا إياك أن تقول: إنى سأفعل شيئا إلا أن تشتمله وتربطه بمشيئة الله ؛ لأنك أنت إن وعدت ، فأنت لا تضمن عمرك ولا إنفاذ وعدك ، إنك لن تفعل شيئا إلا بإرادة الله ، لذلك فلا تعد إلا بالمشيئة ؛ لأنك تعد بما لا تضمن ، فأنت فى حقيقة الأمر لا تملك شيئا ، فإن أردت فعل أى شيء أو الذهاب إلى أى مكان فالفعل يحتاج إلى فاعل ومفعول وزمان ومكان وسبب ، ثم يحتاج إلى قدرة لتنفيذ الفعل . والإنسان لا يملك من هذه الأشياء إلا ما يشاء الله له أن يملكه . إن الإنسان لا يملك أن يظل فاعلا . والإنسان لا يملك إن وُجد الفاعل أن يُوجد المفعول . والإنسان لا يملك الزمن ، ولا يملك المكان ، بل لا يملك الإنسان أن يظل السبب قائما ليفعل ما كان

يريد أن يفعله ؛ فكل هذه العناصر ، الفاعل والمفعول ، والزمان ، والمكان ، والسبب ، لا يملكها إلا الله . لذلك فليحم الإنسان نفسه من أن يكون كاذبا ومجازفا وليكن فى ظل قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إن كلمة « إلّا أن يشاء الله » تعصم الإنسان من أن يكون كاذبا . وعندما لا يحدث الذى يعد به الإنسان فمعنى ذلك أن الله لم يشأ ؛ لأن الإنسان لا يملك عنصراً واحداً من عناصر هذا الفعل . وعندما يقول الحق : « ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد » لأن الذى يخلف الميعاد إنما تمنعه قوة قاهرة تأتيه ، ولو من تغير نفسه تمنعه أن يفعل ، أما الله فلا تأتى قوة قاهرة لتغير ما يريد أن يفعل ، ولا يمكن أن يتغير ؛ لأن التغير ليس من صفات القديم الأزلى .

وحين يؤكد الحق أنه سيتم جمعنا بمشيئته فى يوم لا ريب فيه ، وأن الله لا يخلف الميعاد،فمن المؤكد أننا سنلتقى . وسنلتقى لماذا ؟ لقد قال الراسخون فى العلم : عملنا بالمحكم ، وآمنا بالمتشابه ، ودعوا الله أن يثبت قلوبهم على الهداية رحمة من عنده ، وأن يبعد قلوبهم عن الزيغ ؛ لأنهم خائفون من اليوم الذى سيجمع الله الناس فيه ، إننا سنلتقى للحساب على أفعالنا وإيماننا . وبعد ذلك يقول الحق جل شأنه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ ﴾

ساعة تسمع وأنت المؤمن ، ويسمع معك الكافر ، ويسمع معك المنافق : « ربنا

إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد » ربما فكر الكافر أو المنافق أن هناك شيئا قد ينقذه مما سيحدث فى ذلك اليوم ، كعزوة الأولاد ، أو كثرة مال يشترى نفسه به ، أو خُلة ، أو شفاعة ، هنا يقول الحق لهم : لا ، إن أولادكم وأموالكم لا تغنى عنكم شيئا .

وفى اللغة يقال : هذا الشىء لا يغنى فلاناً ، أى أنه يظل محتاجاً إلى غيره ؛ لأن الغِنى هو ألا تحتاج إلى الغير ، فالأموال والأولاد لا تُغنى أحداً فى يوم القيامة ، والمسألة لا عِزوة فيها ، لا أنساب بينهم يومئذ والجنة ليست للبيع ، فلا أحد يستطيع شراء مكان فى الجنة بمال يملكه .

وكان الكافرون على أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون ذلك القول الشاذ يقولون : مادام الله قد أعطانا أموالاً وأولاداً فى الدنيا فلا بد أن يعطينا فى الآخرة ما هو أفضل من ذلك . ولذلك يقول الله لهم : « إن الذين كفروا لن تُغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا » إذن فالأمر كله مردود إلى الله . صحيح فى هذه الدنيا أن الله قد يخلق الأسباب ، والكافر تحكمه الأسباب ، وكذلك المؤمن ، فإذا ما أخذ الكافر بالأسباب فإنه يأخذ النتيجة ، ولكن فى الآخرة فالأمر يختلف ؛ فلن يملك أحد أسباباً ، ولذلك يقول الحق عن اليوم الآخر :

﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة غافر)

إن البشر فى الدنيا يملكون الأسباب ، ويعيشون مختلفين فى النعيم على اختلاف أسبابهم ، واختلاف كدحهم فى الحياة ، واختلاف وجود ما يحقق للإنسان المُتع ، لكن الأمر فى الآخرة ليس فيه كدح ولا أسباب ؛ لأن الإنسان المؤمن يعيش بالمُسبب فى الآخرة وهو الله ـ جلت قدرته ـ فبمجرد أن يخطر الشىء على بال المؤمن فى الجنة فإن الشىء يأتى له . أما الكفار فلا يغنى عنهم مالهم ولا أولادهم ، لأنهم انشغلوا فى الدنيا بالمال والأولاد وكفروا بالله .

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ

﴿ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾

(من الآية ١١ سورة الفتح)

إذن فما انشغل به الكفار فى الدنيا لن ينفعهم ، ويضيف الحق عن الكفار فى تذييل الآية التى نحن بصددها : « وأولئك هم وقود النار » إنهم المَعذبون ، وسوف يتعذبون فى النار . ولنر النكاية الشديدة بهم ، إن الذين يُعَذَّبون ، هم الذين يُعَذِّبُون ؛ لأنهم بأنفسهم سيكونون وقود النار . إن المعَذَّب ـ بفتح العين وفتح الذال مع التشديد ـ يكون هو المعَذِّب ـ بفتح العين وكسر الذال مع التشديد ـ

فهذه ثورة الأبعاض . فذرّات الكافر مؤمنة ، وذرات العاصى طائعة ، والذى جعل هذه الذرات تتجه إلى فعل ما يُغضب الله هو إرادة صاحبها عليها . وضربنا قديما المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ وقلنا : هب أن كتيبة لها قائد فالمفروض فى الكتيبة أن تسمع أمر القائد ، وتقوم بتنفيذ ما أمر به ؛ فإذا ما جاءوا للآمر والقائد الأعلى بعد ذلك فإنهم يرفعون أمرهم إليه ويقولون له : بحكم الأمر نفذنا العمل الذى صدر لنا من قائدنا المباشر وكنا غير موافقين على رأيه . وفى الحياة الإيمانية نجد القول الحكيم من الخالق :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة النور)

فكان اللسان ينطق بكلمة الكفر وهو لاعِنٌ لصاحبه . واليد تتقدم إلى المعصية وهى كارهةٌ لصاحبها ولاعِنةٌ له ، إن إرادة الله العليا هى التى جعلت للكافر إرادة على يده ولسانه فى الدنيا ، وينزع الله إرادة الكافر عن جوارحه يوم القيامة فتشهد عليه أنه أجبرها على فعل المعاصى ، وتعذب الأبعاض بعضها ، وعندما يقول الحق : « وأولئك هم وقود النار » وهنا مسألة يجب أن نلتفت إليها ونأخذها من واقع التاريخ ، هذه المسألة هى أن الذين كفروا برسالات الله فى الأرض تلقوا بعض العذاب فى الدنيا ؛ لأن الله لا يدّخر كل العقاب للآخرة وإلا لشقى الناس بالكافرين وبالعاصين ، ولذلك فإن الله يُعَجِّلُ بشىء من العقاب للكافرين والعاصين فى هذه الدنيا .

ويقول الحق مثالاً على ذلك :

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ ﴾

وساعة تسمع « كدأب كذا » ، فالدأب هو العمل بكدح وبلا انقطاع فنقول : فلان دأبه أن يفعل كذا أى هو معتاد دائماً أن يفعل كذا . أو نقول : ليس لفلان دأب إلا أن يغتاب الناس .

فهل معنى ذلك أن كل أفعاله محصورة فى اغتياب الناس ، أو أنه يقوم بأفعال أخرى ؟ إنه يقوم بأفعال أخرى لكن الغالب عليه هو الاغتياب ، وهذا هو الدأب . فالدأب هو السعى بكدح وتوالٍ حتى يصبح الفعل بالتوالى عادة . إذن فقوله الحق : « كدأب آل فرعون » ، أى كعادة آل فرعون . وآل فرعون هم قوم جاءوا قبل الرسالة الإسلامية ، وقبلهم كان قوم ثمود وعاد وغيرهم .

ويلفتنا الحق سبحانه إلى أن ننظر إلى هؤلاء ونرى ما الذى حدث لهم ، إنه سبحانه لم يؤخر عقابهم إلى الآخرة ؛ لأنه ربما ظن الناس أن الله قد ادخر عذاب الكافرين إلى الآخرة ؛ لأنه قال :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُولَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

لا ، بل العذاب أيضا فى الدنيا مصداقاً لقوله الحق :

﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة الرعد)

إن العذاب لو تم تأجيله إلى الآخرة لشقى الناس بالأشقياء ، لذلك يأتى الله بأمثلة من الحياة ويقول : « كدأب آل فرعون » أى كعادة آل فرعون ، ولا تصير مسألة عادة إلا بالكدح فى العمل ، وكان دأب آل فرعون هو التكذيب والطغيان وادّعاء فرعون الألوهية .

ويقول سبحانه : « والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا ، فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب » فصار الدأب منهم ، ومما وقع بهم ، فإذا كانوا قد اعتادوا الكفر والتكذيب فقد أوقع الله عليهم العذاب . لقد كان دأب آل فرعون هو التكذيب ، والخالق ـ سبحانه ـ يجازيهم على ذلك بتعذيبهم ، ولتقرأ إن شئت قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ
فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾
الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾
وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ
﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة الفجر)

فدأبهم التكذيب وجزاء الله لهم على ذلك هو العذاب والعقاب . إذن فقوله الحق : « فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب » أى أوقع بهم العذاب فى الدنيا ، وكانت النهاية ما كانت فى آل فرعون وثمود ومَن قبلهم من القوم الكافرين .

وعندما تسمع قول الله : « والله شديد العقاب » فالذهن ينصرف إلى أن هناك ذنباً يستحق العقاب . وكل الأمور من المعنويات مأخوذة دائماً من المُحسَّات ؛ لأن الأصل فى إيجاد أى معلومات معنوية هو المشاهد الحسّية ، وتُنقل الأشياء الحسّية إلى

المعنويات بعد ذلك . لماذا ؟ لأن الشيء الحسيّ مشهود من الجميع ، أما الشيء المعنوى فلا يفهمه إلا المتعقلون ، والإنسان له أطوار كثيرة . ففى طور الطفولة لا يفهم ولا يعقل الإنسان إلا الأمر المحسوس أمامه .

وقلت قديما فى معنى كلمة « الغصب » : إنه أخذ وسلب شيء من إنسان صاحب حق بقوة ، وهذا أمر معنوى له صورة مشهدية ؛ لأن الذى يسلخ الجلد عن الشاة نسميه غاصباً . ولنر كيف يكون أخذ الحق من صاحبه ، إنه كالسلخ تماماً ، فالكلمة تأتى للإيضاح .

وكلمة « ذنب » وكلمة « عقوبة » مترابطتان ؛ فكلمة « ذنب » مأخوذة من مادة ذنب ؛ لأن المادة كلها تدل على « التالى » والذَنَب يتلو المقدمة فى الحيوان . والعقاب هو ما يأتى عقب الشيء .

إذن فهناك ذنب وهناك عقاب . لكن ماذا قبل الذنب ، وماذا يتلو العقاب ؟ لا يوجد ذنب إلا إذا وُجِدَ نص يُجرِّم ، فلا ذنب إلاّ بنص . فليس كل فعل هو ذنب ، بل لابد من وجود نص قبل وقوع الذنب . يجرّم فعله ؛ ولذلك أخذ التقنين الوضعى هذا الأمر ، فقال : لا يمكن أن يعاقب إنسان إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنص ، فلا يمكن أن يأتى إنسان فجأة ويقول : هذا العمل جريمة يعاقب عليها . بل لابد من التنبيه والنص من قبل ذلك على تجريم هذا العمل .

إنه لا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنص . فالنص يوضح تجريم فعل نوع ما من العمل ، وإن قام إنسان بهذا العمل فإنه يُجَرم ، ويكون ذلك هو الذنب ، فكأن الذنب جاء تالياً لنص التجريم . والعقاب يأتى عقب الجريمة ، وهكذا نجد أن كلاً من الذنب والجريمة يأخذان واقع اللفظ ومدلوله ومعناه ؛ فالذَّنَبُ هو التالى للشيء . ولذلك يسمّون الدلو الذى يملأونه بالماء « ذَنوباً » لأنه هو الذى يتلو الحبل . وأيضا الجزاء فى الآخرة :

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

أي ذنوباً تتبع ، وتتلو جريمتهم . إذن فالنص القرآني في أي ذنب وفي أي عقاب يؤكد لنا القضية القانونية الاصطلاحية الموجودة في كل الدنيا : إنه لا عقوبة دون تجريم . فكان العقابُ بعد الجريمة أي بعد الذنب ، والذنب بعض النص ، فلا نأتي لواحد بدون نص سابق ونقول له : أنت ارتكبت ذنباً . وهذه تحل إشكالات كثيرة ، مثال ذلك :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة النساء)

إن الله يغفر ما دون الشرك بالله ، فالشرك بالله قمة الخيانة العظمى ؛ وهذا لا غفران فيه وبعد ذلك يغفر لمن يشاء . ويقول الحق في آية أخرى :

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾

(سورة الزمر)

فهناك بعض من الناس يقولون : إن الله قال:إنه لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، حتى إنهم قالوا : إن ابن عباس ساعة جاءت هذه الآية التي قال فيها الحق : « إن الله يغفر الذنوب جميعا » قال : « إلا الشرك » وذلك حتى لا تصطدم هذه الآية مع الآية الأخرى .

والواقع أنه حين يدقق أولو الألباب فلن نجد اصطداما ، لأن الذين أسرفوا على أنفسهم . هم من عباد الله الذين آمنوا ولم يشركوا بربهم أحدًا ، ولكنهم زلُّوا وغووا ووقعوا في المعاصي فهؤلاء يقال عنهم : إنهم مذنبون ؛ لأنهم مؤمنون بالله ومعترفون بالذي أنزله ، أما المشرك فلم يعترف بالله ولا بما شرع وقنن من أحكام،فما هو عليه لا يسمى ذنبا وإنما هو كفر وشرك . فلا تعارض ولا تصادم في آيات الرحمن .

وعندما يقول الحق :

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فهذا القول الحكيم مُتوازن ومُتّسق ، فالذنب يأتى بعد نص ، والعقاب من بعد ذلك . ويقول الحق آمرا رسوله بإبلاغ الكافرين :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ ﴾

إنه أمر من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وهو المبلغ عن الله ، أن يحمل للكافرين خبراً فيه إنذار . من هم هؤلاء الكفار ؟ هل هم كفار قريش ؟ الأمر جائز . هل هم اليهود ؟ الأم جائز . فالبلاغ يشمل كل كافر .

والنص القرآنى حينما يأتى فهو يأتى على غير عادة الناس فى الخطاب ، ولأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى وسبحانه منزه عن التشبيه أو المثل ـ أنت تقول لابنك : اذهب إلى عمك ، وقل له : إن أبى سيحضر لزيارتك غدا . فماذا يكون كلام الابن للعم ؟ إن الابن يذهب للعم ويقول له : إن أبى سيزورك غدا . لكن الأمر وهو الأب يقول : قل لعمك إن أبى سيزورك غدا . فإذا كان الابن دقيق الأمانة فهو يقول :

ـ قال أبى : ـ قل لعمك، إن أبى سيزورك غدا . وعندما يقول الحق سبحانه : « قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد » .

فهذا معناه قمة الأمانة من الرسول المبلغ عن الله ، فنَقل للكافرين النص الذى أمره الله بتبليغه للكافرين . وإلا كان يكفى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يذهب

للكافرين ويقول لهم : ستُغلبون وتُحشرون . لكن من يدريهم أن هذا الكلام ليس من عند محمد وهو بشر ؟ لذلك يبلغهم الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله أبلغه أن يبلغهم بقوله : « قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد » .

إن الرسول لم يبلغهم بمقول القول : لا ، إنما أبلغهم نص البلاغ الذى أبلغه به الله . وساعة يأمر الحق فى قرآنه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ أمرا للكافرين فإن الرسول صلى الله عليه وسلم مُخاطب ، والكفار مُخاطبون ، فعندما يواجههم فإنه يقول لهم : ستغلبون .. وفى آية أخرى يقول الحق :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

إن القياس أن يقول : إن تنتهوا يغفر لكم ما قد سلف ، لكن الحق قال : « إن ينتهوا » ، فكأن الله حينما قال كان الكفار غير حاضرين للخطاب ورسول الله هو الحاضر للخطاب ، والله يتكلم عن غائبين .

ولكن الله ـ سبحانه ـ فى هذه الآية التى نحن بصددها يحمل الرسول تمام البلاغ . فمرة يكون النقل من الآمر الأول كما صدر منه سبحانه كقوله: « إن ينتهوا » ومرة يأمره الآمر الأول أن يبلغ الكلمة التى يكون بها مُخاطِبا أى لا تقل : سيغلبون وقل : « ستغلبون » لأنك أنت الذى ستخاطبهم . وهذه الدقة الأدائية لا يمكن إلا أن تكون من قادر حكيم .

إنه بلاغ إلى كفار قريش أو إلى مطلق الذين كفروا . والغلب سيكون فى الدنيا ، والحشر يكون فى الآخرة .

فإذا ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل النص القرآنى « ستُغلبون » فمتى قالها رسول الله ؟ لقد قالها والمسلمون قلة لا يستطيعون حماية أنفسهم ، ولا يقدرون على شىء . وكل مؤمن يحيا فى كنف آخر ، أو يهاجر إلى مكان بعيد . فهل يمكن أن يأتى هذا البلاغ إلا ممن يملك مطلق الأسباب ؟

لقد قالها الرسول مبلغا عن الله ، والمسلمون فى حالة من الضعف واضحة ، ومادام قد قالها ، فهى حجة عليه ، لأنّ مَن أبلغه إياها وهو الله قادر على أن يفعلها .
« قل للذين كفروا ستغلبون » ليس العقاب فى الدنيا فقط ، ولكن فى الآخرة أيضا « وتُحشرون إلى جهنم وبئس المهاد » هذه المسألة بشارة لرسول الله ولأصحابه ، وإنذار للكافرين به ، ويتم تحقيقها فى موقعة بدر . فسيدنا عمر بن الخطاب لما نزل قول الله :

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة القمر)

تساءل عمر بن الخطاب : أى جمع هذا ؟ إنه يعلم أن المسلمين ضعاف لا يقدرون على ذلك ، وأسباب انتصار المسلمين غير موجودة ، ولكن رسول الله لم يكن يكلم المؤمنين بالأسباب ، إنما برب الأسباب ، فإذا ما تحدى وأنذرهم ، مع أنه وصحبه ضعاف أمامهم ، فقد جاء الواقع ليثبت صدق الحق فى قوله : « ستغلبون » ويتم انتصار المسلمين بالفعل ، ويغلبون الكافرين .

ألا يُجعل صدق بلاغ الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يحدث فى الدنيا دليل صدقٍ على ما يحدث فى الآخرة ؟ إن تحقيق « ستُغلبون » يؤكد « وتُحشرون إلى جهنم » . وفى هذه الآية شيئان : الأول : بلاغ عن هزيمة الكفار فى الدنيا وهو أمر يشهده الناس جميعا ، والأمر الآخر هو فى الآخرة وقد يُكذبه بعض الناس . وإذا كان الحق قد أنبأ رسوله بأنك يا محمد ستَغلب الكافرين وأنت لا تملك أسباب الغَلَبَة عليهم . ومع ذلك يأتى واقع الأحداث فيؤكد أن الكافرين قد تمت هزيمتهم . ومادام قد صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فى البلاغ عن الأولى ولم يكن يملك الأسباب فلا بد أن يكون صادقا فى البلاغ فى الثانية وهى البلاغ عن الحشر فى نار جهنم .

وبعض المفسرين قد قال : إن هذه المقولة لليهود ؛ لأن اليهود حينما انتصر المسلمون فى بدر زُلزلوا زِلزَالا شديدا ؛ فلم يكن اليهود على ثقة فى أن الإسلام والمسلمين سينتصرون فى بدر ، فلما انتصر الإسلام فى بدر ؛ قال بعض اليهود : إن محمداً هو الرسول الذى وَعدنَا به الله والأَوْلَى أن نؤمن به.فقال قوم منهم : انتظروا إلى معركة أخرى . أى لا تأخذوها من أول معركة ، فانتظروا ، وجاءت معركة أحد ،

وكانت الحرب سجالا[1] .

ولنا أن نقول : وما المانع أن تكون الآية لليهود وللمشركين ولمطلق الذين كفروا ؟ فاللفظ عام وإن كان قد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جمع اليهود فى سوق بنى قينقاع وقال لهم : يا معشر اليهود احذروا مثل ما نزل بقريش وأسلموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم ، فقد عرفتم أنى نبىّ مرسل . فماذا قالوا له ؟ قالوا له : لا يغرنّك أنك لقيت قوما أغماراً - أى قوما من غمار الناس لم يجربوا الأمور - لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، لئن قاتلتنا لعلمت أنّا نحن الناس ، فأنزل الله قوله : « قل للذين كفروا ستغلبون . . . » إلخ الآية .

والمهاد هو ما يُمهّد عادة للطفل حتى ينام عليه نومًا مستقراً أى له قرار ، وكلمة « بئس المهاد » تدل على أنهم لا قدرة لهم على تغيير ما هم فيه ، كما لا قدرة للطفل على أن يقاوم من يضعه للنوم فى أى مكان . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾

وحين يقول الحق : « قد كان لكم آية » . فمن المخاطب بهذه الآية ؟ لاشك أن المخاطب بهذه الآية كل من كانت حياته بعد هذه الواقعة ، سواء كان مؤمنا أو كافرا ، فالمؤمن تؤكد له أن نصر الله يأتى ولو من غير أسباب ، والكافر تأتى له الآية

(١) الحرب سجال : النصر بين طرفيها متداول .

بالعبرة فى أن الله يخذله ولو بالأسباب ، إن الله جعل من تلك الموقعة آية . والآية هى الشيء العجيب .أىْ إن واقعه ونتائجه لا تأتى وَفق المقدمات البشرية .

نعم هذا خطاب عام لكل من ينتسب إلى أىّ فئة من الفئتين المتقاتلتين ، سواء كانت فئة الإيمان أو فئة الكفر . ففئة الإيمان لكى تفهم أنه ليست الأسباب المادية هى كل شيء فى المعركة بين الحق والباطل ، لأن لله جنودا لا يرونها . وكذلك يخطّيء هذا الخطاب فئة الكافرين فلا يقولون : إن لنا أسبابنا من عدد وعُدَّة قوية ، فقد وقعت المعركة بين الحق والباطل من قبل ؛ وقد انتصر الحق .

وكلمة « فئة » إذا سمعتها تصورت جماعة من الناس ، ولكن لها خصوصيّة ؛ فقد توجد جماعة ولكن لكل واحد حركة فى الحياة . ولكن حين نسمع كلمة « فئة » فهى تدل على جماعة ، وهى بصدد عمل واحد . ففى غير الحرب كل واحد له حركة قد تختلف عن حركة الآخر . ولكن كلمة « فئة » تدل على جماعة من الناس لها حركة واحدة فى عمل واحد لغاية واحدة .

ولاشك أن الحرب تصور هذه العملية أدق تصوير ، بل إن الحرب هى التى تُوَحّد كل فئةٍ فى سبيل الحركةِ الواحدة والعمل الواحد للغاية الواحدة ؛ لأن كل واحد من أى فئة لا يستطيع أن يحمى نفسه وحده ، فكل واحد يفيء ويرجع إلى الجماعة ، ولا يستطيع أن ينفصل عن جماعته . ولكن الفرد فى حركة الحياة العادية يستطيع أن ينفصل عن جماعته .

إذن فكلمة « فئة » تدل على جماعة من الناس فى عملية واحدة ، وتأتى الكلمة دائما فى الحرب لتصور كل معسكر يواجه آخر . وحين يقول الحق : « قد كان لكم آية فى فئتين التقتا » أى أن هناك صراعا بين فئتين ، ويوضح الحق ما هية كل فئة فيقول : « فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة » . وحين ندقق النظر فى النص القرآنى ، نجد أن الحق لم يورد لنا وصف الفئة التى تقاتل فى سبيل الله ولم يذكر أنها فئة مؤمنة ، وأوضح أن الفئة الأخرى كافرة ؛ وهذا يعنى أنّ الفئة التى تقاتل فى سبيل الله لا بد أن تكون فئة مؤمنة ، ولم يورد الحق أن الفئة الكافرة تقاتل فى سبيل الشيطان اكتفاء بأن كفرها لا بد أن يقودها إلى أن تقاتل فى سبيل الشيطان .

لقد حذف الحق من وصف الفئة الأولى ما يدل عليه فى وصف الفئة الثانية . وعرفنا وصف الفئة التى تقاتل فى سبيل الله من مقابلها فى الآية وهى الفئة الأخرى. فمقابل الكافرة مؤمنة ، وعرفنا - أيضا - أن الفئة الكافرة إنما تقاتل فى سبيل الشيطان لمجرد معرفتنا أن الفئة الأولى المؤمنة تقاتل فى سبيل الله . ويسمون ذلك فى اللغة « احتباك » . وهو أن تحذف من الأول نظير ما أثبت فى الثانى ، وتحذف من الثانى نظير ما أثبت فى الأول ، وذلك حتى لا تكرر القول ، وحتى توضح الالتحام بين القتال فى سبيل الله والإيمان ، والقتال فى سبيل الشيطان والكفر .

إذن فالآية على هذا المعنى توضح لنا الآتى : لقد كان لكم آية ، أى أمر عجيب جدا لا يسير ولا يتفق مع منطق الأسباب الواقعية فى فئتين،فعندما التقت الفئة المؤمنة فى قتال مع الفئة الكافرة ، استطاعت الجماعة المؤمنة المحددة بالغاية التى تقاتل من أجلها - وهى القتال فى سبيل الله - أن تنتصر على الفئة الكافرة التى تقاتل فى سبيل الشيطان .

وبعد ذلك يقول الحق : « يرونهم مثليهم رأى العين » فنحن أمام فئتين ، فمن الذى يَرى ؟ ومن الذى يُرى ؟ من الرائى ومن المرئى ؟ إن كان الرائى هم المؤمنين فالمرئى هم الكافرون . وإن كان الرائى هم الكافرين فالمرئى هم المؤمنون ولنر الأمر على المعنيين :

فإن كان الكافرون هم الذين يرون المؤمنين ، فإنهم يرونهم مثليهم ؛ أى ضعف عددهم ، وكان عدد الكافرين يقرب من ألف . إذن فالكافرون يرون المؤمنين ضعف أنفسهم ، أى ألفين . وقد يكون المعنى مؤديا إلى أن المؤمنين يرون الكافرين ضعف عددهم الفعلى . وقد يؤدى المعنى إلى أن الكافرين يرون المؤمنين ضعف عددهم وكان عدد المؤمنين يقرب من ثلاثمائة وأربعة عشر ، وضعف هذا العدد هو ستمائة وثمانية وعشرون مقاتلا .

فإن أخذنا معنى « مثليهم » على عدد المؤمنين ، فالكافرون يرونهم حوالى ستمائة وثمانية وعشرين مقاتلا ، وإن أخذنا معنى « مثليهم » على عدد الكافرين فالكافرون يرون المؤمنين حوالى ألفين . وما الهدف من ذلك ؟ إن الحق سبحانه يتكلم عن

المواجهة بين الكفر والإيمان حيث ينصر الله الإيمان على الكفر . وبعض من الذين يتصيدون للقرآن يقولون : كيف يقول القرآن : « يرونهم مثليهم رأى العين » وهو يقول فى موقع آخر :

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِى الْأَمْرِ
وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِى
أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِى أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ
تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

وهذه الآية تثبت كثرة ، سواء كثرة المؤمنين أو كثرة الكافرين ، والآية التى نحن بصدد تناولها بالخواطر الإيمانية تثبت قلة ، والمشككون فى القرآن يقولون : كيف يتناول القرآن موقعة واحدة على أمرين مختلفين ؟ ونقول لهؤلاء المشككين : أنتم قليلو الفطنة ؛ لأن هناك فرقًا بين الشجاعة فى الإقبال على المعركة وبين الروح العملية والمعنوية التى تسيطر على المقاتل أثناء المعركة ، والحق سبحانه قد تكلم عن الحالين : قلل الحق هؤلاء فى أعين هؤلاء ، وقلل هؤلاء فى أعين هؤلاء ، لأن المؤمنين حين يرون الكافرين قليلا فإنهم يتزودون بالجرأة وطاقة الإيمان ليحققوا النصر .

والكافرون عندما يرون المؤمنين قلة فإنهم يستهينون بهم ويتراخون عند مواجهتهم . ولكن عندما تلتحم المعركة فما الذى يحدث ؟ لقد دخلوا جميعا المعركة على أمل القلة فى الأعداد المواجهة ، فما الذى يحدث فى أعصابهم ؟ إن المؤمن يدخل المعركة بالاستعداد المكثف لمواجهة الكفار . وأعصاب الكافر تخور لأن العدد أصبح على غير ما توقع ، إذن فقول الحق :

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِى أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِى أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ اللَّهُ
أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

يصور الحالة قبل المعركة ؛ لأن الله لا يريد أن يتهيب طرف من طرف فلا تنشأ المعركة . لكن ما إن تبدأ المعركة حتى يقلب الحق الأمور على عكسها ، إنه ينقل الشيء من الضد إلى الضد . ونقل الشيء من الضد إلى الضد إيذان بأن قادرا أعلى يقود المشاعر والأحاسيس ، والقدرة العالية تستطيع أن تصنع فى المشاعر ما تريد .

لقد قلل الحق الأعداد أولا حتى لا يتهيبوا المعركة ، وفى وقت المعركة جعلهم الله كثيرا فى أعين بعضهم البعض، فترى كل فئة الطرف الآخر كثيرا ، فتتفجر طاقات الشجاعة المؤمنة من نفوس المؤمنين فيقبلون على القتال بحماسة ، وتخور نفوس الكافرين عندما يواجهون أعدادا أكثر مما يتوقعون . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إن هذه الآية هى خبر تبشيرى لكل مؤمن بالنصر ، وهى فى الوقت نفسه خبر إنذارى لكل كافر بأن الهزيمة سوف تلحق به إن واجه الجماعة المؤمنة . فإياكم أن تقيموا الأمور بمقاييس الأسباب ، فالأسباب المطلوبة منكم هى المقدور عليها للبشر وعليكم أن تتركوا تتمة كل ذلك للقدر ، فلا تخور الفئة المؤمنة أمام عدد كثير ، ولا تغتروا معشر الكفار بأعدادكم الكثيرة ؛ فالسابقة أمامكم تؤكد أن عدداً قليلا من المؤمنين قد غلب عددا كثيرا من الكافرين .

ومن معانى الآية - أيضا - أن الكافرين يرون المؤمنين مثلى عدد الكافرين ، أى ضعف عددهم . ومن معانيها - ثالثا - أن الكافرين يرون المؤمنين ضعف عدد المؤمنين الفعلى . ومن معانى الآية - رابعا - أن يرى المسلمون الكافرين مثليهم ، أى مثل المؤمنين مرتين ، أى ستمائة نفر وقليلا ، وحينئذ يكون عدد الكافرين فى عيون المؤمنين أقل من العدد الفعلى لهؤلاء الكافرين . إذن فما حكاية « مثليهم » هذه ؟ لقد وعد الله المؤمنين بنصره حين قال :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟

مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾

(سورة الأنفال)

والنسبة هنا أن المؤمن الواحد يخرج إلى عشرة من الكافرين فيهزمهم ، ذلك وعد الله ، وحين أراد الله التخفيف قال الحق :

﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾

(سورة الأنفال)

لقد خفف الله النسبة ، فواحد من المؤمنين يغلب اثنين من الكافرين . فالمؤمنون موعودون من الله بالغلبة حتى وهم ضعاف . والحق يقول فى الآية المبشرة للمؤمنين ، المنذرة للكافرين ، والتى نحن بصددها الآن : « والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » .

ونحن نسمع كلمة « عبرة » كثيرا ، والمادة المأخوذة منها تدل على الدخول من مكان إلى مكان ، فيقال عن ذلك « عُبور » ، ونحن فى حياتنا العادية نخصص فى الشوارع أماكن لعبور المشاة ، أى المسافة التى يمكن للمشاة أن ينفذوا منها من ضفة الشارع إلى الضفة الأخرى من الشارع نفسه . وعبور البحر هو النفاذ من شاطىء إلى شاطىء آخر .

إذن فمادة « العبور » تدل على النفاذ من مكان إلى مكان ، و« العَبرة » أى الدمعة لأنها تسقط من محلها من العين على الخد . و« العِبارة » أى الجملة التى نتكلم بها ، فهى تنتقل من الفم إلى الأذن ، وهى عبور أيضا . و« العبير » أى الرائحة الجميلة التى تنتقل من الوردة البعيدة عن الإنسان قليلا لتنفذ إلى أنفه . إذن فمادة « العبور » تدل على « النفاذ » .

وحين يقول الحق : « إن فى ذلك لعبرة » . أى تنقلكم من أمر قد يخيفكم أيها المؤمنون لأنكم قليل ، وهم كثير ، إنما تنقلكم إلى نصر الله أيها المؤمنون ، وتنقلكم

أيها الكافرون إلى الهزيمة برغم كثرة عُدتكم وعَددكم . فالعبرة هى حدث ينقلك من شيء إلى شيء مغاير ، كالظالم الذى نرى فيه يوما ، ونقول : إن ذلك عبرة لنا ، أى إنها نقلتنا من رؤيته فى الطغيان إلى رؤيته فى المهانة .

وهكذا تكون العبرة هى العظة اللافتة والناقلة من حكم إلى حكم قد يستغربه الذهن ، فتذييل هذه الآية الكريمة بهذا المعنى هو إيضاح وبيان كامل ، فالحق يقول فى بداية هذه الآية : « قد كان لكم آية فى فئتين التقتا » . وتنتهى الآية بقوله : « إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » .

إذن فالعبرة شيء ينقلنا من أمر إلى أمر قد تستغربه الأسباب وذلك إن كنت متروكا لسياسة نفسك ، لكن المؤمن ليس متروكا لسياسة نفسه ؛ لأن الله لو أراد أن يعذب الكفار بدون مواجهة المؤمنين وحربهم لعذبهم بدون ذلك ، ولكن الله يريد أن يكون عذاب الكافرين بأيدى المؤمنين :

﴿ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة التوبة)

ولو كان الله يريد أن يعذب الكافرين بغير أيدى المؤمنين لأحدث ظاهرة فى الكون تعذبهم ، كزلزال يحدث ويدمرهم ، ولكن الله يريد أن يعذب الكافرين بأيدى المؤمنين . « والله يؤيد بنصره من يشاء ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » ، و« الأيد » هو القوة ، إذن فهو يريد منك فقط النواة العملية ، ثم بعد ذلك يكملها الله بالنصر ، « وأيَّده » أى قواه ، ويؤيد الله بنصره من يشاء ، وتكون العبرة لأولى الأبصار .

وقد يقول قائل : أتكون العبرة لأولى الأبصار أم لأولى البصائر ؟ وهنا نقول : إن العبرة هنا لأولى الأبصار ؛ لأن الأمر الذى تتحدث عنه الآية هو أمر مشهدى ، أمر محسوس ، فمن له عينان عليه أن يبصر بهما ، فإذا كان التفكير والتدبر ليس أمرا موهوبا لكل مخلوق من البشر ، فإن البصر موجود للغالبية من الناس ، وكل منهم

يستطيع أن يفتح عينيه ليرى هذا الأمر المشهدى .

وإذا ما نظرنا إلى المعركة بذاتها وجدنا الدليل الكامل على صدق العبارة ؛ فالمؤمنون قلة وعددهم معروف محدود ، وعتادهم قليل ، ولم يخرجوا بقصد حرب ، إنما خرجوا لقصد الاستيلاء على العير المحملة بالأرزاق من طعام وكسوة تعويضا عما اغتصبه المشركون من أموالهم فى مكة ، ولو أنّهم استولوا على العير فقط لما كان النصر عظيماً بالدرجة التى كان عليها ؛ لأن العير عادة لا تسير بعتاد ضخم إنما تحفظ بالحراسة فقط . ولكن الله يريد لهم النصر على ذات الشوكة ، أى الطائفة القوية المسلحة ، لقد وعدهم الله بالنصر على إحدى الطائفتين :

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ ﴾

(سورة الأنفال)

لقد كان وعد الله أن ينصر المؤمنين على إحدى الطائفتين ، والأمل البشرى كان يود الانتصار على الطائفة غير ذات الشوكة أى الطائفة غير المسلحة وهى العير ، ولكن مثل هذا النصر لا يكون له دَوِىُّ النصر على الطائفة المسلحة ، فقد كان من السهل أن يقال : إن محمداً ومن معه تعرضوا لجماعة من التجار لا أسلحة معهم ولا جيش ، ولكن الله يريد أن يجعل من هذه المعركة فرقانا وأن يحق الحق .

إنكم أيها المؤمنون لم تخرجوا إلاّ لِقصد العير أى لم يكن استعدادكم كافيا للقتال ، أما الكفار فقد جاءوا بالنفير ، أى بكل قوتهم فقد ألقت مكة فى هذه المعركة بأفلاذ أكبادها . وعندما يأتى النصر من الله للمؤمن فى مثل هذه الموقعة فهو نصر حقيقى ، ويكون آية غاية فى العجب من آيات الله . وتصير عبرة للغير . لذلك نجد العجائب فى هذه المعركة ـ معركة بدر ـ .

الغرائب أنك تجد الأخوين يكون لكل منهما موقف ومجابهة . وتجد الأب والابن لكل منهما موقف ومجابهة برغم عمق الصلة بينهما ، فمثلا ابن أبى بكر رضى الله عنه ، وكان هذا الابن لم يسلم بعد ، وكان فى جانب الكفار ، وأبوه الصديق مع رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، وبعد أن أسلم ابن أبي بكر يحكى الابن لأبيه بشيء من الامتنان والبر : لقد تراءيت لى يوم بدر فزويت وجهى عنك . فيرد أبو بكر الرد الإيمانى الصدِّيقى : والله لو تراءيت لى أنت لقتلتك .

وكلا الموقفين منطقى ، لماذا ؟ لأن ابن أبي بكر حين يلتقى بأبى بكر ، ويرى وجه أبيه ، فإنه يقارن بين أبي بكر وبين ماذا ؟ إنه يقارن بين أبيه وبين باطل ، ويعرف تمام العلم أنه باطل ، فيرجح عند ابن أبي بكر أبوه ، ولذلك يحافظ على أبيه فلا يلمسه . لكنَّ أبا بكر الصديق حينما يقارن فهو يقارن بين الإيمان بالله وابنه ، ومن المؤكد أن الإيمان يزيد عند الصديق أبي بكر ، فلو رآه يوم بدر لقتله .

ولله حكمة فيمن قُتل على أيدى المؤمنين من مجرمى الحرب من قريش ، ولله حكمة فيمن أبقى من الكفار بغير قتل ؛ لأن هؤلاء مدخرون لقضية إيمانية كبرى سوف يبلون فيها البلاء الحسن . فلو مات خالد بن الوليد فى موقعة من المواقع التى كان فيها فى جانب الكفر لحزنا نحن المسلمين ؛ لأن الله قد ادخره لمعارك إيمانية يكون فيها سيف الله المسلول ، ولو مات عكرمة لفقدت أمة الإسلام مقاتلا عبقريا .

لقد حزن المسلمون فى موقعة بدر لأنهم لم يقتلوا هؤلاء الفرسان ؛ لأنهم لم يعلموا حكمة الله فى ادخار هؤلاء المقاتلين ؛ لينضموا فيما بعد إلى صفوف الإيمان . والله لم يمكِّن مقاتلى المسلمين يوم بدر من المحاربين الذين كانوا على دين قومهم آنئذٍ إلّا لأن الله قد ادخرهم لمواقع إيمانية قادمة يقفون فيها ، ويحاربون فى صفوف المؤمنين ، وهذا نصر جديد .

ونرى أبا عزيز وهو شقيق الصحابى مصعب بن عمير الذى أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبشر بدين الله ، ويعلِّم أهل المدينة ، وكان مصعب فتى قريش المدلل صاحب ترف ، وأمه صاحبة ثراء ، وبعد ذلك رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يلبس جلد شاة بعد أن كان يلبس الحرير ، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انظروا إلى الإيمان ماذا فعل بصاحبكم » .

والتقى مصعب فى المعركة مع أخيه أبي عزيز ، وأبو عزيز على الكفر ، ومصعب